الطفل المشكل

ملخصة عن كتاب « سيكولوجيا الخلق لرودلف آلبرز (١)

تطلق كلمة « المشكل أو الصعب » على الأطفال والأولاد الذين يظهرون شيئاً من الشذوذ الخلقي بشكل يمنعهم من الاستجابة لوسائل التربية والتعليم العادية ؛ دون أن يكون لهذا الشذوذ أساس عضوى ظاهر . وهذا التعريف يتضمن في ذاته حكماً قيمياً لا يمكن قبوله بغير تحرج ، لأن الخصائص الشاذة غير المرغوب فيها أو الصعوبات التي تعترض تنشئة الأطفال وتربيتهم تبعاً للوسائل السوية ليست في حد ذاتها ظواهر يمكن قياسها قياساً موضوعياً ، وإنما يقررها المربي أو الوالد أو المعلم بحسب حكم قيمى أو مثالى ذاتى يتصوره هو . ولاشك في أن طبيعة مطالب القائمين بتربية الأطفال لها دخل كبير في تلوين الموقف كله وصبغه بصبغة معينة . فبعض الآباء مثلا يرمون أطفالهم « بالصعوبة » إذا أظهروا شيئاً من الحيوية حتى ولو كان في الحدود العادية المألوفة في الأطفال ، والبعض الآخر يعتنق آراء صارمة عن تربية الأطفال وعن كيف تكون الطاعة والرضوخ بشكل لا يمكن أن يرضخ له إلا الطفل السقيم ويأباه الطفل السليم الصحيح كل الإباء . . . وكثيراً ما نجد الآباء يسألون الأطباء النفسيين عما إذا لم يكن أبناؤهم مرضى أو إذا لم تكن عقولهم ضعيفة مع أنه ليس ثمت مايدعو إلى مثل هذه الأسئلة ؛ والأدهى من ذلك أن أسئلة الوالدين لا تحلو إلا أمام الأبناء أنفسهم . . . ومهما يكن الأمر فان الصعوبة لا يمكن تعيينها إلا إذا كانت مطالب المربي أو الأب في حدود المعقول وإن لم يكن من السهل تعيين هذه الحدود بدقة ؛ لذلك كان لابد من الاعتماد على الحكم التقريبي في هذه المسألة وأن نبحث عن وجود الصعوبة ونختبر الموقف التعليمى في كل حالة على انفراد ، دون أن نستطيع صياغة قواعد عامة شاملة . ولاشك في أن هناك حالات كثيرة يصدق فيها إطلاق كلمة « الصعوبة » على السلوك المباشر الصادر عن الطفل ؛ بمعنى أنها حالات غير اجتماعية لا يمكن الشك في شذوذها وانحرافها عن الطريق السوى وإن لم يكن من السهل أيضاً تعيين وتحديد المقياس تماما .

وأهم عنصر مشترك عند كل هؤلاء الأطفال الذين تظهر فيهم (الصعوبة) إزاء التربية هو عنصر الخوف — سواء كان ظاهراً جلياً أو خفياً كامناً . بل إنه حتى في الحالات التي يتميز فيها سلوك الطفل بالبلاهة أو التهور أو البذاءة والقحة أو عدم المبالاة أو غير

(١) Rudolf Allers : Psychology of Character

ذلك يمكن أن نستشف عامل الخوف إذا درسنا حالته بدقة وتعمق ؛ فقد يكون الطفل مثلا ثائراً يأتى بعض أفعال التهور كأن يعدو فجأة أمام سيارة تجري بسرعة أو يتغيب عن البيت ساعات طويلة يمضيها في التسكع في الشوارع أو يرتكب بعض سرقات صغيرة.. مثل هذا الطفل الذى يعتبره أقرانه في العادة بطلا من الأبطال ربما كان يخاف من الظلام أو من بعض الحيوانات أو يخاف من السباحة ويظهر في تعلمها نقصاً كبيراً ؛ وهذا النقص أو العجز يكشف في الغالب عن عدم استقرار الطفل داخلياً ، ولذلك فإن الطفل حين يجد نفسه في موقف جديد كل الجدة عليه وغير مألوف لديه فإنه لايستطيع أن يلجأ إلى الجهد المستمد من التعويض والذى يساعده في المواقف المألوفة على أن يخفي (عن نفسه وعن أقرانه على السواء) شعوره بالحاجة إلى الطمأنينة وراء مايبديه من أفعال الشجاعة التى يبالغ ويغالى فيها . وعلى ذلك يمكن القول إن شعور الطفل المبالغ فيه بعدم الاطمئنان له دخل كبير في التصرفات الشاذة التي تصدر عنه ؛ تلك التصرفات التى تعتبر في الواقع بمثابة مبالغات لسمات السلوك الصادر عن الطفل السوي الذي لايظهر أي صعوبة في تربيته وتنشئته ؛ والطفل المشكل بسلوكه الشاذ إذن يحاول أن يتغلب أو على الأصح يخفى ما يشعر به من قلق وعدم اطمئنان وخوف وراء مظاهر القوة وتعزيز الذات التى يبديها .

ولا يتعرض رودلف آليرز في هذا الفصل لذكر الدقائق والتفاصيل الإكلينيكية للطفل المشكل ، وإنما يكتفى بأن يعرض علينا بعض الأشكال النموذجية للصعوبة ليبين بمساعدتها طبيعة ذلك التطور الشاذ ، وليرسم أيضاً الخطوط العامة التى ينبغى انتهاجها في تربية أمثال هؤلاء الأطفال . ويلاحظ آليرز أن أغلب شكاوى الآباء والمعلمين والمربين من الأطفال تنصب على أنهم كذابون أو يتصفون بالعصيان والكسل والبذاءة والقحة في السلوك أو أنهم يميلون الي التهور والسرقة ؛ وكل هذه الصفات أمثلة ونماذج للسلوك الشاذ غير الاجتماعى ، وهي كلها أفعال تتصل اتصالا وثيقاً ببعض الأمراض النفسية مثل الذهول وعدم التركيز وعدم التوافق وأوهام الليل والبوال والانزعاج والكآبة والانطواء على الذات وما إليها . وقد بينت الملاحظة الدقيقة أن تلك السمات الشاذة الموجهة ضد المجتمع ترتبط دائما ببعض هذه العقد النفسية ؛ لذلك كان يجب على الطبيب حين تعرض له إحدى حالات الصعوبة أن يحاول تبينها وتعيينها على ضوء مايتصل بها من هذه العقد النفسية .

ويقص علينا آليرز بعض حالات الصعوبة التي باشرها بنفسه ، نجتزىء منها هذه الحالة . قال :

دعيت ذات مرة للاستشارة في حالة طفل في الخامسة من عمره ، وكان للطفل أخ أصغر منه في الثانية والنصف ، ولكنه كان على صغر سنه يظهر شيئاً كثيراً من الاستقلال والاعتماد على النفس ، فكان مثلا يرتدي ملابسه بنفسه بينما كان الأخ الأكبر يبدو مكتئباً كما لم يكن على وجه العموم يستطيع أن يرتدي ملابسه أو حذاءه بغير معونة الأم وإن كان في بعض أحيان قليلة متفرقة يفعل ذلك بدقة وإتقان كما يجب . وكان الطفل يظهر عداء شديداً نحو أخيه الأصغر ونحو بقية الأطفال الصغار على العموم ، كما أن سلوكه كان يتميز بالعصيان وعدم الطاعة والتمرد والخوف من الظلام بشكل عجيب ، وقد حاول مرة أو مرتين الفرار من المنزل كما كان يظل طيلة يومه هائما على وجهه في الشوارع . وكان الطفل قد طرد من روضة الأطفال التي كان بها على إثر اعتدائه على أطفال الروضة وإلحاق الأذي بأجسامهم ، ولكن أهم خاصية كانت تظهر في سلوك الطفل نحو الأطفال الصغار ونحو أخيه الأصغر على العموم ، هي أنه كان كثيراً مايغير على اللبن الذي كانت الأم تحجزه خاصة للابن الأصغر ، وكانت الأم تضع لبن صغيرها على ظهر دولاب مرتفع حتى يكون بعيداً عن متناول ابنها الكبير ولكنه مع ذلك كان يكوّم المقاعد على مائدة في الحجرة ثم يعلوها حتى يصل إلى اللبن بالرغم مما فى ذلك من خطر السقوط ؛ وهذا الضرب من الشجاعة التى يبديها الطفل في هذه الحالة لم تكن تتفق تماما بأي حال مع ما كان يبديه من الخوف في مختلف الظروف الأخري . وحين درست الظروف التي مرت بها الأسرة جميعاً عرفت أن الأسرة فقيرة فقد كان الأب يعمل سباكا ، وكانت تسكن — قبل أن تنتقل إلى منزلها الصغير الذي كانت تعيش فيه وقت الاستشارة — في بيت جدّة الطفل ، وكان بيتاً كبيراً واسعاً تتوفر فيه كل وسائل الراحة والترف . وكانت الجدة والأم تحوطان الطفل دائما برعايتهما وعنايتهما . فلما ولدت الأم طفلها الثاني كان من الطبيعي أن توليه رعايتها واهتمامها دون أخيه الأكبر وخاصة في الشهور الأولى من مولده . ثم انتقلت الأسرة الى بيتها الجديد وبذلك فقد الطفل عناية جدته واهتمامها به ، ووجد نفسه في بيته وحيداً إلا من أخيه الذي احتكر لنفسه اهتمام الأم وعطفها ، وبذلك أصبح سلوك الطفل تحكمه وتسيره أفكار تتعلق أشد التعلق بالرغبة في الانتقام وإنزال العقاب بمنافسه في حب أمه ، وكان يريد أن يشعر أنه لايزال موجوداً وأن له حقوقه ومركزه الممتاز كما كان يريد أن يجبر أمه ويضطرها إلى أن تبذل له شيئا من الاهتمام ؛

وهذا يتضح على الخصوص في أنه كان لايرتدى ملابسه إلا بمساعدتها وأنه يستولى على لبن أخيه الصغير ولو تعرض في ذلك للخطر ، كما أنه كان يحاول أن يشعر أمه «بأهميته» وهذا هو الدافع الحقيقى علي هروبه من البيت حتي يثير قلقها الشديد ويسبب لها المتاعب . كذلك كان سلوكه الوقح وتصرفاته الشاذة كلها موجهة لاجتذاب اهتمامها حتي ولو ظهر ذلك الاهتمام على شكل العقوبة التي تنزلها الأم به . . . أليست هذه النظرة التي ينظرها الابن المخلوع عن عرشه خطأ معقولا منطقيا في السلوك ؟

فما العمل إذن في هذه الحالة ؟ لاشك أنه كان من أصعب الأمور إعادة الموقف الأول الذي كان يعيش فيه الطفل قبل أن يولد أخوه والذي كان يرغب فيه ، ولكن يمكن مع ذلك مساعدة الطفل بحيث يدرك أن هذا الموقف ليس هو الوضع الوحيد — ولا حتى أفضل وضع — لإشباع رغبته الطبيعية في التقدير والاعتراف به ، كما أن من الممكن في نفس الوقت إيجاد وسيلة لإشباع مطالب الطفل الذاتية بل والموضوعية أيضاً . ففي الحالة التي ذكرناها آنفا نصح آليرز الأم أولا بأن تتجنب تماما ذكر الأخ الأصغر باعتبار أنه مثال أو نموذج يحتذي به أو أن « تعيّر » به ابنها الأكبر كما كانت تفعل دائما ، ونصحها ثانيا بأن تعمل علي تقوية شعور الطفل بنفسه وذلك عن طريق تكليفه القيام ببعض المهام والأعمال وتثيبه عليها ، فبدلا من أن تخفي عنه اللبن مثلا فوق الدولاب تستطيع أن تضعه أمامه وتكلفه بأن يحرسه من الكلب وهكذا . والغاية من مثل هذه الأفعال تقوية شعور الطفل الإيجابي بنفسه . وقد أفلحت هذه الطريقة التي اصطنعها آليرز واتبعتها الأم مع ابنها ، حتي إن الأم نفسها قالت له بعد أسابيع قليلة من ذلك : « إنه طفل يختلف تماما عن الطفل الأول » . ولا ريب فى أن الوصول الى النتائج المرضية يتوقف على الأم ذاتها وعلي مقدار فهمها للمشكلة ، وليس من اليسير دائما العثور على أمهات ذكيات كهذه .

وهذه الحالة التي ذكرناها تعتبر حالة بسيطة واضحة خالية من التعقيد وإن لم يكن من المحتم ـ كما يقول آليرز ـ أن يسلك الأطباء نفس المسلك في التشخيص والعلاج . وهذه الوسيلة في معالجة أمثال هذه الحالات يرجع الفضل فيها إلى حد كبير إلى علم النفس الفردي « والدكتور رودلف آليرز مؤلف الكتاب الذي نلخص هذا الفصل منه هو من أتباع مدرسة علم النفس الفردي Individual Psychology . فعلم النفس الفردي يحتم علينا أن نهتم بالتفاصيل الدقيقة التى لم يكن الطبيب يعيرها في العادة شيئاً كثيراً من اهتمامه . وهذه التفاصيل ذاتها هي التي توصلنا إلى النتائج التي تتضح

أهميتها بنسبة النجاح الذي تحققه . ولا شك أن هذه الطريقة تقتضي منا العمل على تغيير طرائق التربية المتبعة حتى يمكن توجيه الطفل الوجهة الصحيحة السليمة بعد أن كان الأساس قد هيء لنمو منحرف ضد الجماعة . ومعالجة هذا الانحراف أو الشذوذ الاجتماعي يتطلب التعاون التام بين الطبيب من ناحية والمربي أو المعلم أو الأب من ناحية أخرى ثم اقتناع هؤلاء بإرشادات الطبيب وتنفيذ توجيهاته الخاصة . ولا جدال في أن من أكبر الخطأ أن يتمسك الأب أو المعلم بوجهة نظره وبموقفه دون أن يحاول تفهم حالة الطفل على وجهها الصحيح .

ولقد استطاع الدكتور آليرز من كثرة تجاربه ومن خبرته الطويلة التي اكتسبها من معالجة الأطفال المشكلين أن يعرف الأسباب الدافعة لهم على سلوكهم الشاذ ؛ وهو يتخذ الأطفال الذين يظهرون ميلا شديداً نحو السرقة (وتكررت منهم حوادث السرقة فعلا) نموذجا للطفل المشكل . وهو يعين لنا على ضوء دراسته وتجاربه الدوافع والحوافز التالية:

أولا — أول الحوافز التي تحفز الطفل على السرقة هو أن الطفل من ناحية يريد أن « يلعب دوراً له أهميته في الحياة » . ولكنه من ناحية أخري عنده شعور متأصل في نفسه بأنه عاجز عن تحقيق ذلك الدور بالطرق العادية الإيجابية ؛ لذلك كان يلجأ إلى إشباع رغبته بتمثيل أفعال البطولة التي تثير الإعجاب في نفوس زملائه ، والسرقة أفضل مثال لتلك الأفعال يستطيع بها أن يفاخرهم ويعلو عليهم . والواقع أن الطفل كثيراً مايسرق ليس حباً في السرقة ذاتها ولا من أجل الشيء المسروق بالذات وإنما يسرق للحصول على شيء ما « قد يكون المال أو غيره » يستطيع به أن يجمع الأطفال حوله ويربطهم إليه ، فالطفل الذى لايستطيع أن يجتذب إعجاب زملائه به عن طريق تفوقه في اللعب أو العمل مثلا قد يستطيع أن يشترى ذلك الإعجاب بوسائل أخري قد تكون شاذة كما رأينا .

ثانياً — هناك حافز آخر غير طبيعي يعتبر من أهم الحوافز التي تدفع الطفل إلى السرقة وإلى السلوك المشكل على العموم ، وهذا الحافز هو التذاذ الطفل وسروره من الشرور التي يقوم بها ؛ وهذا الحافز يظهر في صور وأشكال عديدة . فالطفل الذى تعود السرقة مثلا يقنع نفسه — كما يقنع الآخرين — بأنه عاجز تمام العجز عن أن يتقدم من الناحية الخلقية وأن كل إصلاح فى هذه الناحية لن يجدي شيئاً ، وهذا القول الأخير قول كثيراً ماتردد في الحقيقة على مسمع من الطفل . وفي مثل هذه الحالة يكون موقف الطفل قريباً كل القرب من حالات العصابات القهرية Compulsion Neurosis لأن الطفل

يحس بدوافع قوية لايستطيع قهرها ولا مقاومتها تدفعه على السرقة وعلى أن يستولى على أشياء قد لا يعرف كيف يفيد منها . ثم إن السرقة توجد عنده نوعا من التلطيف أو الرضا المؤقت إذا أخفق الطفل فى أن يشارك غيره من الأطفال في بعض اللذات الأخرى ، فهو بالسرقة يتيح لنفسه لذة مؤقتة عابرة ، حتى ولو تعرض أمره للانكشاف وتعرض هو بالتالى للعقوبة .

ثالثاً — وهناك مجموعة ثالثة من الحوافز يمكن تسميتها « أفعال الانتقام » ويضرب لنا الدكتور آليرز لها المثال التالى :

مر رجل بغلام صغير يلعب في كومة من الجليد بيديه العاريتين فقال له الرجل مرتاعا : « إن يديك سوف تتجمدان من ذلك » فقال له الولد : « حسن ؛ فهذا كفيل بأن يرد أبى إلي صوابه . . لماذا لايشترى لي قفازات جديدة ؟ ! » . فهذا مثال طريف يمثل لنا الحوافز الكامنة وراء سلوك كثير من الأطفال . . بل وكثير من البالغين أيضاً .

والواقع أن جزءاً كبيراً من سلوك الطفل الصعب الغرض منه الانتقام ، فالأطفال الذين يسرقون يعتقدون أنهم بالسرقة ينتقمون لأنفسهم من آبائهم ، لأن السرقة على الخصوص تعتبر من أشد الآثام إيلاماً لنفوس الوالدين ، فالطفل يشعر بأن السرقة سوف تسبب لوالديه وللعائلة كلها الخزي والعار وبذلك يقتص لنفسه ، وهذا يظهر بوضوح من أن كثيراً من الأطفال يسرقون من البيت أشياء ليسوا في حاجة اليها ويخفونها ، لا لشيء إلا لأنهم يعرفون أن أبويهم يعتزان بها ، فالسرقة بذلك تكون أداة لتسبيب الألم للوالدين كما أنها تكون بمثابة تعبير عن اتجاه لاشعورى ثوري ضد المعاملة السيئة ، وهذا يحدث في الأغلب للأطفال الذين يخضعون لنظام قاس من التربية يعاقب فيه الطفل على أتفه الأخطاء ، ففي هذه الحالة يستوى في نظر الطفل الخطأ البسيط والذنب الكبير مادام الجزاء في كلا الحالين واحداً (إذا انكشف أمر السرقة بطبيعة الحال) [1] .

---

(١) من الحالات المشابهة التى أتيح لكاتب هذه السطور أن يباشرها حالة طفل لجأ ذات يوم إلى مبرة فاروق الأول (وهي دار خيرية بالاسكندرية تضم عدداً من المتشردين الأحداث) . وقد ذكر الطفل للملاحظ الدار قصة عرف فيما بعد أنها ملفقة وهي تتلخص فى أنه فقد والديه فكفله عمه ؛ ولكن العم مالبث أن توفى هو أيضاً فأساءت زوجة العم معاملة الطفل مما دفعه على الهرب والالتجاء الى المبرة . وقد مكث الطفل برهة غير قصيرة في المبرة كان سلوكه خلالها مثالا للسلوك الطيب . ومن البحث الدقيق الذي أجراه القائمون بأعمال المبرة عرف أن والدي الطفل لايزالان على قيد الحياة . وقد عرف أن الطفل وهو في حوالي الحادية عشرة من عمره تلميذ بالسنة الأولى الابتدائية وقد رسب فيها عدة أعوام ، بينما أخوه الذي يكبره بعام واحد وصل الى السنة الرابعة ، كما أن له أخا آخر أصغر منه فى حوالى السابعة من عمره يتأهب للالتحاق بالمدرسة الابتدائية وبذلك يلحق به؛ =

ويلعب حافز الانتقام دوراً كبيراً في حوادث انتحار الأطفال ، لأن هـذه الحوادث من شأنها أن تجذب اهتمام الناس بها وتدفعهم الى التساؤل عن الظروف التي دفعت المنتحر إلى التخلص من الحياة . ويذكر الدكتور آليرز أن كثيراً من محاولات إنتحار الأطفال التي مرت عليه وباشرها بنفسه كان الغرض منها تخويف المدرسين وإلقاء العبء والجرم عليهم ، فالطفل دائما يعتبر المدرس أو الأب ظالماً متزمتاً قاسياً ولا بد من أن يرد نتيجة قسوته إلى صدره هو . بل لقد وجد أن هذا الدافع يكمن وراء كثير من حالات الانتحار عند البالغين أيضاً ، فكثير من تلك الحالات تقوم على حوافز شعورية للانتقام ولكن الحافز قد يكون لاشعوريا تماما في حالات أخرى وهذا ينطبق على حالة الطفل الذى كان يلعب في الجليد . ونحن إذا لاحظنا الطفل الذي يخضع للضغط الشديد في التربية فإننا نجده كثيراً مايغرق في أحلام اليقظة فيصور لنفسه مثلا موقف والديه الى جانب جثته وقد استبد بهما الحزن ، أو يصور لنفسه الأثر الذي ستتركه جنازته وكيف أن المدرس الذي طالما أرهقه وظلمه سوف يؤنب نفسه وكيف أن الناس بطراً سوف ينهالون عليه باللوم وهكذا ، فكل هذا إنما يصدر عن حافز الانتقام .

وعلى العموم فإن من الحق أن نضع اللوم في كثير من حالات السلوك الصعب علي البالغين الذين يوكل اليهم أمر تربية الأطفال . والواقع أن كثيراً من حالات الصعوبة ومايتتج عنها من آثار يمكن تفاديها تماما إذا فهم المربون الطفل ووجداناته وحاولوا رده إلى الطريق المستقيم باتباع الطرق القويمة ، أو بقول آخر إنه يجب على المربين والوالدين أن يعدلوا اتجاههم وموقفهم إزاء الطفل تعديلا يقوم على الفهم الصحيح .

أحمد أبو زيد

= وقد كان هذا عاملا ينغص على الطفل حياته في المنزل وخاصة أن الوالدين كانا كثيراً ما يسومانه العذاب لذلك ويبديان له وجه الفرق بينه وبين أخويه . لذلك كان الطفل كثير الهروب من المنزل كما أنه بدا طفلا (مشاكساً) أو على الأصح طفلا صعباً ، لم تفلح كل وسائل الإرهاب لردعه ؛ وقد ارتكب الطفل كثيراً من حوادث السرقة ، فكان يسرق كتب والده ومجلاته أو غير ذلك من الأشياء التى لا يمكن أن يفيد منها ؛ وواضح أن الطفل كان يبغى بذلك الانتقام . وقد أشير على الأم بأن تعدل موقفها وسلوكها إزاء ابنها وقد أثمرت هذه المعاملة مع الطفل واستقام سلوكه ولم يعد يلجأ إلى السرقة .